

مقاربة نقدية في منهجية الدراسات الأنثروبولوجية العراقية

أ.م. د. حسين فاضل سلمان

استاذ الانثروبولوجيا الثقافية ومناهج البحث

الانثروبولوجي

جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم علم الاجتماع

٢٠١٥

تمهيد:

تكمّن أهمية هذه البحث بمناقشة منهجية الدراسات الانثروبولوجية العراقية ومراحل نشوئها وتبلورها بالاعتماد على مرجعياتها النظرية وميادين بحثها زمانياً ومكانياً، وتأطير موضوعاتها بنماذج وظيفية، تبرز التوجهات الانثروبولوجية العراقية، وتمكننا من استجلاء وفهم طبيعة البحث الانثروبولوجي وموجهاته النظرية والمنهج المعتمد، ومما لا شك فيه ان لكل علم من العلوم سماته الخاصة التي يتميز بها، ويميز هذه المعايير عن باقي التخصصات إذ يحتكم إليها أهل التخصص في الإجرائية المنهجية (Methodological Operationalization) التي تتشكل من الموجهات النظرية وتشغل على وفي قواعد البحث الميداني.

إن هدف المنهجية (Methodology) في البحث العلمي هو مساعدتنا على الفهم الشامل والواعي لنتائج البحث، ولعملية البحث ذاتها، فالمنهجية هي: دراسة المناهج وتكمن وظائفها في مناقشة البنية النظرية، والأسئلة التي تطرحها على ميدان البحث ومناقشة مناهج البحث ومدى قدرتها على طرح الأسئلة ودراستها في الواقع، وتبحث في الاعتماد المتبادل بين النظرية والنموذج والمنهج^(١).

فقد تبنت الدراسات الانثروبولوجية العراقية نهج المدرسة (البريطانية الاجتماعية، الاميركية الثقافية، الفرنسية البنيوية)، إن الاختلاف والتوازي والتقاطع في المدارس السابقة افرز منهجية انثروبولوجية انعكست على موضوع الدراسات العراقية وميادينها، ومنهج التساؤل فيها.

وبالرغم من تعدد الممكنات النظرية في هذه العلاقة، إلا أننا نرى أن الخط والاستبدال قد ورد في العديد من أماكن الدراسات الانثروبولوجية التي سنتناولها في هذا البحث.

إن الإطار النظري المتعارف عليه في مقابل الجانب الميداني في الدراسات الانثروبولوجية قد جرت العادة ان ينظر اليه على وفق الترتيب الذي يبدأ ب: (الأهمية وأهداف الدراسة) ثم (المشكلة) والتي تحوي في طياتها مجموعة من التساؤلات المعتمدة، وفي مقابل هذا تحوي عناوين الأطروحات المفاهيم التي يتبناها الباحث بالشرح والتفصيل، أما دور النظرية والنموذج والمنهج فيختلف من دراسة إلى أخرى، فبعض الدراسات تتبنى (نظرية ومنهج)، والأخرى تتبنى (نموذج ومنهج)، وأخرى تجمع بين الثلاثة. وهنا تكمن الإشكالية التي نتناولها في بحثنا، إذ (تأتي اغلب النماذج المستخدمة في الإطار النظري باعتبارها دراسات سابقة عراقية وعربية وأجنبية) وهي في الغالب عبارة عن تجميع شكلي لهذه الدراسات، ولا يوجد توظيف فعلي لها باعتبارها نماذج إرشادية، هذا من الجانب الاول، أما الجانب الآخر وهو ما يتعلق بالنظرية والمنهج، فإننا نجد أن قسماً من الباحثين يستخدمون اصطلاح النظرية البنائية الوظيفية والمنهج البنائي الوظيفي في الإطار نفسه، فاختلاف الدراسات الانثروبولوجية وتداخل مواضيعها المنهجية وأماكن البحث فيها يدفعنا إلى تصنيفها في نماذج وظيفية ليتسنى لنا فهم منهجيتها.

(١) عبد القادر عرابي، المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٧، ص ٤٥.

ويقوم التصنيف الذي نعمل على تحديده في بحثنا هذا، على فهم وتحديد تطور الانثروبولوجيا العراقية التي انتقلت باطراد من دراسة المجتمعات القروية إلى دراسة الموضوعات المعقدة، في مديات تصنف ديمغرافياً على أنها حضرية، مما أدى إلى عملية تنهيج (Methdololisation) المناهج المستخدمة في الدراسة لمجال مكاني وبشري وزماني بما يتوافق مع متطلبات عناوين الدراسة، وليس بما تقتضيه الموضوعية في البحث، إذ تشكل هذه الحقيقة لب الإشكالية في الاتجاهات المقبلة.

وبحسب المراجعة للدراسات الانثروبولوجية العراقية، يمكن القول بوجود ثلاث اتجاهات في الانثروبولوجيا العراقية يفهم من خلالها المنظار المنهجي: الأول: انثروبولوجيا القرية، إذ جاء تصنيف اغلب العناصر المنهجية لهذه المواضيع تحت عنوان المدرسة الوظيفية (الانثروبولوجية الاجتماعية). أما الاتجاه الثاني فهو: انثروبولوجيا التغير الاجتماعي، وينصب الاهتمام فيها على العنوان (المفاهيم)، على خلاف الاتجاه الأول الذي يركز على المكان كدراسة أنثروبولوجية شمولية، أما الاتجاه الثالث: فيركز فيه الأنثروبولوجيين في دراساتهم على مفهوم الثقافة، وعلى وفق المدرسة الانثروبولوجية الثقافية، وهو الاتجاه الذي أبدى فيه الانثروبولوجيون اهتماماً منهجياً للدخول في الدراسات الحضرية والمجتمعات المركبة في المدنية. وهو ما ستكون عليه مباحث بحثنا الحالي.

أولاً: أهمية البحث:

ل للوصول إلى الحقيقة، يتوجب القول أن عملية التفريق بين (النموذج والنظرية والمنهج) في الدراسات الانثروبولوجية هي العملية الأساس التي تنبثق منها مجموعة من التساؤلات المعرفية المرتبطة بعلاقة (الاتصال والانفصال) في الثلاثية المنهجية السابقة الذكر، ويشكل هذا البحث مراجعة لمعظم الدراسات الانثروبولوجية العراقية، هذه الدراسات التي امتدت لمدة طويلة والتي تعدّ المادة الخام التي يستند إليها بحثنا هذا. وعليه، فإن البحث الحالي سوف يركز على دور المكان في مسيرة البحث الانثروبولوجي العراقي، وصولاً إلى فهم المنهجية الانثروبولوجية التي درست طبيعة المجتمع العراقي.

ثانياً: هدف البحث:

إن الهدف من مناقشة المنهجية الانثروبولوجية وموجهاتها النظرية من خلال مراحل نشوء وتبلور الدراسات الانثروبولوجية وطبيعة المواضيع ومجالاتها المكانية وبنيتها الزمنية، هو الوصول إلى فهم متكامل عن طبيعة الصعوبات المعرفية والميدانية التي مرت بها هذه الدراسات، وكذلك رسم السمات الأساسية التي نمّطت طبيعة البحث الانثروبولوجي العراقي.

ثالثاً: تساؤلات البحث:

١. ماهي المرجعيات النظرية الاساس التي اعتمدت عليها الدراسات الانثروبولوجية العراقية في تأطير الممارسة العملية (الميدانية)، وماهي المفاهيم الحارسة التي اعتمدها الانثروبولوجيون العراقيون كموجهات نظرية للإرشاد المنهجي زمانياً ومكانياً؟.
٢. ما هو دور المكان في تقسيم وبلورة هوية الانثروبولوجي العراقي والتغيرات التي طرأت عليه، وعلاقة هذه التغيرات بالمرجعيات النظرية؟.
٣. الى اي مدى تمتاز الدراسات الانثروبولوجية العراقية بالاستقلال عن باقي التخصصات الانسانية كالسوسيولوجيا، وهل ان التداخل والاستعارة اسهمت في تطور هذه الدراسات، أم ان هذا التداخل أفقد الباحث روح المنهج الانثروبولوجي الحقيقي العلمي؟.

المبحث الأول: انثروبولوجيا القرية:

إن اغلب الدراسات التأسيسية لم تحدد لعناوينها مفاهيم مسبقة، بل أنها ابتعدت عن جدلية المتغيرات السببية، إذ ركزت هذه الدراسات على مجتمعات صغيرة، وأقامت توصيفاً اجتماعياً ثقافياً شمولياً لها، فالبحث الانثروبولوجي الكلاسيكي يمتاز بالشمولية، وتعد هذه من أهم الخصائص التي ميزت تلك الدراسات، إضافة إلى الإقامة المتجذرة في الميدان والتي يسعى الباحث خلالها إلى صناعة وشائج موضوعية ينفصل فيها عن زمنه المعرفي المسبق، والابتعاد عن الأحكام المسبقة، ويرتبط بالتاريخ الاجتماعي للثقافة المدروسة. ومن خلال الدرس التشاركي لمجتمعية التفاعل، يركز الباحث على ظاهرة محددة (البؤرة الثقافية لمجتمعية الجماعات) تتمحور حولها أغلب الأنماط المجتمعية.

ويمكن فهم المديات النظرية والميدانية لعملية بناء الموضوعات واختيار الميدان ونشوء الدراسات الانثروبولوجية القروية من خلال عرض لطبيعة الدراسات التأسيسية العراقية ومنها: (الجبايش: دراسة انثروبولوجية لقرية في أهوار العراق)، مكتوبة طبقاً لطريقة المدرسة الانثروبولوجية المعروفة باسم^(٢) (The British Functional School of Anthropology)، إذ أشار الانثروبولوجي شاكراً مصطفى سليم وفي ملاحظاته حول الدراسة الانثروبولوجية الأولى في العراق، بأنها اتبعت المنهج الوظيفي البريطاني، وقد جاء التأسيس على شكل عمل مونوغرافي تجاوز الحدود الوصفية ليتخذ من السمات الثقافية الظاهرة في العلاقات الاجتماعية دليل لتنظيمات اجتماعية ميزت القرية في الأهوار، وفي مجال النظرية الانثروبولوجية السائدة للمدرسة البريطانية الكلاسيكية ومنهجها والتي اعتمد عليها المؤسسون العراقيون من خلال دراستهم الميدانية.

^(٢) ينظر: شاكراً مصطفى سليم، الجبايش، دراسة أنثروبولوجية لقرية في أهوار العراق، بغداد، مطبعة

وتأسيساً على هذه الدراسة، جاءت معظم الدراسات اللاحقة على هذا المنوال النظري والمنهجي، مع بعض الاختلافات في آليات البحث، ومنها دراسة الانثروبولوجي علاء الدين جاسم في (الراشدية: دراسة انثروبولوجية اجتماعية في ضواحي مدينة بغداد)، ودرسته الثانية (نظرية ريديفيد في دراسة المجتمعات المحلية وتطبيقاتها دراسة انثروبولوجية لواحة شتاتة)^(٣)، وقد شكّلت دراسات (الأهوار والراشدية وشتاتة) نموذجاً إرشادياً للعديد من الدراسات لأنثروبولوجيا القرية كالدراسات المؤشرة في النموذج الآتي:

ت	الموضوع	المكان	السنة
١.	دراسة أنثروبولوجية لقرية الشرش.	الجنوب	١٩٧٥
٢.	الصيكل - دراسة أنثروبولوجية لقرية في الأهوار.	الجنوب	١٩٨٣
٣.	قرية الصوفية - دراسة انثروبولوجية اجتماعية.	الأنبار	١٩٨٩
٤.	أبو فليس - دراسة انثروبولوجية اجتماعية.	الأنبار	١٩٩٥
٥.	العلمية - دراسة انثروبولوجية اجتماعية.	بغداد	٢٠٠٢
٦.	البو حشمة - دراسة انثروبولوجية اجتماعية.	صلاح الدين	٢٠٠٢
٧.	البو جوارى - دراسة انثروبولوجية اجتماعية.	صلاح الدين	٢٠٠٤
٨.	الكرطان - دراسة انثروبولوجية اجتماعية.	الأنبار	٢٠٠٥

إن جميع هذه الدراسات اعتمدت على الأبعاد النظرية للمدرسة البنائية الوظيفية الكلاسيكية وعلى منهجية كيفية تبلورت من خلال الملاحظة بالمشاركة، والمعاشية، والمقابلة، إذ أن من أهم السمات المعرفية التي تتميز بها هذه المدرسة هي الدراسة الشمولية ومبدأ الدراسة التزامنية وعدم استعمال المنهج التاريخي. وبالرغم من هذه السمات، إلا أننا نجد أن جميع هذه الدراسات اعتمدت على الجوانب التاريخية والخط بين النظرية والنموذج والمنهج.

ولتقديم صورة أكثر وضوحاً، نشير إلى أن دراسة الانثروبولوجي شاكراً مصطفى سليم ودراسة علاء الدين جاسم احتوت في مضمونها على النقاط المنهجية الآتية:

أولاً: استعمال التفسيرات التاريخية التي لا تتبناها المدرسة البنائية الوظيفية.

ثانياً: استعمال التوجهات الكمية التي تجاوزت الإحصاء الوصفي.

ثالثاً: إعطاء الافتراض النظري المسبق دور كبير في البحث الميداني.

إن استعمال الانثروبولوجي شاكراً مصطفى سليم تواريخ حياة الذين أجرى عليهم البحث في دراسته للأهوار جاء كوسيلة لبناء تاريخ الظاهرة المراد تفسيرها، ولا نعتقد بأنه يشبه مبدأ التخمين أو الافتراض التي اتبعه الانثروبولوجيون الأوائل في دراسة المجتمعات البسيطة (البداية)، بل جاء من

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢-١٣.

منظور أن التضلع التاريخي ضرورة يقتضي العمل به في البحث الانثروبولوجي المقارن، وعلى أساس هذا المنظور يرى (Nadel) أن العلاقة بين الانثروبولوجية والتاريخ تتلخص في دراسة الوقائع في ضوء الماضي بالنسبة للمؤرخ، في حين يدرس الانثروبولوجي الوقائع في ضوء الحاضر، أي يسجل الأحداث خلال زمن معين بالذات ولذلك فهو يدرس الظواهر الإنسانية التي تحدث هنا والآن (Here and Now). ويميز رادكليف براون بين التفسير التاريخي (Historical Explanation) والمفاهيم النظرية (The Optical Understanding) على أساس أن التاريخ يتضمن أيضا إيضاحات رمزية، كما انه يصف تعاقب الأحداث المفردة بينما تتميز الانثروبولوجيا وتميز بالمقارنة والتحليل، ويظهر هذا التميز بوضوح عندما نسأل لماذا يوجد نظام معين في مجتمع معين؟ وبالنسبة للإجابة على وجود نظام واستمراره، فانه يفسر في ضوء التتابع المعقد للأحداث الذي يشكل مركبات نمطية متوارثة ينتج عنها هذا النظام^(٤). وبهذا المعنى بين التفسيرين ندرك أن النظر في تاريخ المجتمع المدروس لا يعني الانزلاق نحو التفسيرات التاريخية، وإنما هو توضيح لخلفيات الأنظمة، وقد يفضي إلى عقد بعض المقارنات، على أننا يجب أن نشير إلى أن المقارنة تعد رديفا للمنهج التاريخي عند بعض الانثروبولوجيون ومنهم فرانس بواز (Franz Poas) الذي اعتبر أن منهجه التاريخي هو منهج مقارن في صورة متقدمة^(٥).

والملاحظ على بعض الدراسات الانثروبولوجية المؤشرة في النموذج الأول أدناه، أنها استخدمت التاريخ كإطار شكلي بعيداً عن التوظيف التفسيري، مما تسبب في فقدان كثير من الحقائق الثقافية في هذه الدراسات ببعدها البنائي الوظيفي، إذ جاء استعمال التاريخ في نموذج القرية عن طريق تحليل البناء الاجتماعي والأعمال الثقافية كبناءات مبنية من دون ذوات تبني (تاريخ تفاعل الأفراد)، ومن جانب آخر جاء التركيز على الحاضر في (التفاعلات الاجتماعية الآنية) من دون الرجوع للشروط الاقتصادية أو الاجتماعية لإنتاج العمل الثقافي أو لمنتجه، أي دراسة التاريخ العمودي من دون التحليل الأفقي، ودراسة التاريخ الأفقي من دون التحليل العمودي، وباعتقادنا أن هذا الاتجاه يخرج من توجهات المدرسة البنائية الوظيفية ويحسب على الدراسات الانثروبولوجية العراقية وبمنظور معرفي نسبي، أما استعمال الانثروبولوجست شاكر مصطفى سليم للتاريخ فقد جاء على وفق منظور المدرسة الوظيفية التي تركز على دراسة الحالة لإيجاد وتصنيف الذوات التي بنت التاريخ الاجتماعي وتشكلت النظم على أساسها.

وتأتي إشكالية الاستبيان (استمارات جمع المعلومات) لتؤشر الجدل الدائر بين المنهجية الكيفية والكمية أو ما يعرف بالاتجاه (السوسيو انثروبولوجي) والتي سوف نتناولها في الاتجاه الثاني والثالث الذي نجد في دراسته استخداما واسعا للتوجهات الكمية، ونقتصر هنا بالإشارة إلى استعمال الدراسات التأسيسية لهذا الاتجاه وطبيعته.

(٤) حسين فاضل سلمان، تحضر الضواحي: دراسة انثروبولوجيا الحضرية، رسالة ماجستير غير منشورة،

كلية الآداب، جامعة بغداد، قسم الاجتماع، ٢٠٠٣، ص ٨٤.

(٥) حسين فاضل سلمان، تحضر الضواحي، المصدر نفسه، ص ٨٤.

إن الملاحظة الإحصائية التي نريدها هنا تستهدف دعم المعرفة الانتولوجية عن طريق المقابلات المقننة (Standardized)، والتي تعتمد أساساً على خطة معينة يتم تنفيذها في وقت محدد، وتستهدف الحصول على الحقائق والاتجاهات والآراء، وغالباً ما تعد الاستمارة كوسيلة لجمع المادة... ومما لا شك فيه أن استعمال الانثروبولوجيين لاستمارة المقابلة يختلف إلى حد ما عن استعمال السوسولوجيين^(٦)، فالاستمارة لدى الباحث الانثروبولوجي تستمد معطياتها من الممارسة الانتوجرافية كتلك التي قام بها شاكر مصطفى سليم، بينما تستمد الاستمارة مكوناتها في البحوث السوسولوجية بالاعتماد على الافتراضات النظرية المسبقة والتي يعتمدها السوسولوجيون.

وفي إطار الحديث عن الافتراض النظري والممارسة الفعلية في الميدان، فإننا نلاحظ وجود بعض المفاهيم المنهجية التي يتناولها الانثروبولوجيون في الدراسات العراقية ومنها: (فرضيات الدراسة)، (التعريف الإجرائي)، وقبل الدخول في تأشير مواقع هذه المفاهيم ودورها في الدراسة الميدانية، يتوجب علينا تعريف النظرية والمنهج والنموذج لكي يتسنى لنا فهم الاعتماد المتبادل بين النظرية (الافتراض) والنموذج (الإجرائي) والمنهج (الطريقة).

فالنظرية: هي (مخطط أو نسق من الأفكار أو الاحكام التي تراعي كتوضيح أو تفسير لمجموعة من الوقائع أو الظواهر، أي هي فرضية تؤكدتها أو ترسخها الملاحظة أو التجريب، وتقترح أو تقبل كتفسير لوقائع معروفة، فالنظرية تمثل مجموعة من المفاهيم المرتبطة التي تقدم رؤية منظمة منهجية للظاهرة بتحديد العلاقة بين المتغيرات مستهدفة التفسير)^(٧). وبصفة عامة فإن هناك خلط واضح في معالجة النظرية التي قد يشار إليها أحياناً بالإطار التصوري أو النموذج أو النظرية، ولعل أكثر الإشارات شيوعاً (النموذج والنظرية) فالفرق بين النموذج والنظرية هو: أن النماذج تجريد من الواقع يستهدف تنظيم وتبسيط نظرتنا إلى هذا الواقع... إن الانثروبولوجيين يتعاملون مع نماذج تقوم بوظيفة إرشادية تفسيرية ذات طبيعة تأملية فالنماذج: (تشير إلى وجهات نظر مستمدة من البحث ومشكلاته، إنها تضع للباحث حدود الأسئلة في الميدان ومن خلال الأفكار والقيم والأساليب التي يشارك فيها أعضاء المجتمع وتعمل كمرشح من خلاله تحدد الرؤية الشخصية للباحث)^(٨).

وفي مقابل ذلك، يأتي تعريف المنهج كمجموعة من القواعد والأسس والخطوات التي يستعين بها الباحث في تنظيم النشاط الإنساني الذي يقوم به من أجل البحث عن الحقائق العلمية أو الفحص الدقيق

(٦) فاروق اسماعيل المدخل إلى الانثروبولوجية النظرية والمنهج، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧، ص ٢٤٧.

(٧) فاروق اسماعيل المدخل إلى الانثروبولوجية النظرية والمنهج، مصدر سابق، ص ٩.

(٨) طوني بينيت، لورنس غرو، ميغام موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ٦٩٢.

لها فالمنهج هو: مجموعة من العمليات العقلية التي تقود إلى دراسة علمية مهما كان موضوعها، وأما أدوات البحث العملي فهو وسيلة كل علم لجمع الحقائق بطريقة خاصة ولهدف معين، فالمنهج العلمي حسب هذا الرأي هو واحد وإنما الاختلاف يكون في أدوات البحث^(٩).

عموماً، فإن طرق جمع البيانات وتحليلها واستخلاص النتائج تحتاج من دون شك إلى تصورات نظرية دقيقة، فكل معالجة للمنهج تحتاج منا منذ البداية بان نسلم بان لكل منهج من مناهج البحث طبيعته الخاصة، وبالتأكيد ان المنهج الواحد لا يلائم كل مشكلة ندرسها، وإنما يحدد هذا الاتفاق بين المنهج والمشكلة. وطبيعة الموضوع الذي نتناوله بالبحث هو الذي يحدد اختيارنا للمنهج الملائم، ويمكننا القول: أننا لا نستطيع أن ندرس المناهج ذاتها من الفراغ وإنما لا بد أن تستند هذه المناهج بدورها على أسس نظرية، ويجب تبريرها وفهمها في إطار هذه الأسس^(١٠)، ويأتي التصور الذي وضعه الانثروبولوجست علاء الدين جاسم بشأن المزوجة بين النظرية والنموذج ليؤشر الى العديد من علامات الاستفهام، فقد وظّف الباحث نموذج (ريدفيلد) النظري من خلال النظرية الوظيفية ومنهجية المعاشة بالملاحظة، إضافة إلى المنهج التاريخي.

إن عملية المزوجة بين الأبعاد المنهجية السابقة الذكر اتخذها الباحث علاء الدين جاسم كنموذج إرشادي يحدد الأبعاد النظرية المتخذة كفروض أساسية، وهذه الفروض هي^(١١):
أولاً: دور العلاقات الاجتماعية الثنائية والعلاقات الاجتماعية الدائمة في البناء الاجتماعي في المجتمعات الصغيرة.

ثانياً: علاقة النسق الايكولوجي بالأنساق الاجتماعية الأخرى التي تؤلف البناء في المجتمعات الصغيرة.
ثالثاً: دراسة البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمعات المحلية الصغيرة في ضوء علاقتها بالأبنية الاجتماعية والثقافية التاريخية للمجتمعات القومية.

رابعاً: النمطية المثالية النموذجية في المتصل الشعبي - الحضري.
وتأسيساً على ما سبق، فإن استعمال الفرضية في الدراسات الانثروبولوجية لا يؤشر إشكالية منهجية إلا عندما يتحول الافتراض النظري إلى حكم مسبق يؤطر مسيره البحث، بمعنى انه يتوجب على الانثروبولوجي استعمال الفروض كألية منهجية لتفسير المعطيات الميدانية، وليس كألية لرسم أو تصوير

(٩) مبارك أحسن طالب، تأصيل المنهج في العلوم الاجتماعية، المجلة العربية للدراسات الأمنية، المجلد ١٦، العدد ٣٢، ٢٠٠١، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(١٠) مصطفى عمر، إشكالية المنهج في الانثروبولوجية، مصدر سابق، ص ١٦٠.

(١١) علاء الدين جاسم، علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق، دار التربية، بغداد، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٥، ص ٩.

المعطيات، وقد تتحول الكثير من الافتراضات التي تحتويها مفاهيم الدراسة إلى تعاريف إجرائية كما هو موجود في بعض الدراسات المؤشرة في نموذج القرية، إذ يتخذ بعض الانثروبولوجيين افتراضاً مسبقاً. والمشكلة هنا، ان استعمال الافتراض لم يأت بناؤه وتوليد من المعطيات الاثنوجرافية، بل جاء على وفق منظور الافتراضات والمفاهيم البنائية، اي ان محور الاثنوجرافيا كان استقرائياً، مبتعداً عن مبدأ الأثنوجرافيا الحوارية التي تهتم بإثارة الاسئلة الاستفهامية من الميدان واليه.

فيما يرتبط التعريف الإجرائي بالقياس، ويقوم على تحديد المفاهيم المستعملة بواسطة الإجراءات، أي دلائل تجريبية او عددية تمثل الظواهر الاجتماعية وتساعد هذه الإجراءات على توضيح المعنى العلمي للمفهوم^(١٢). والملاحظ على بعض الدراسات الانثروبولوجية استخدامها لبعض المفاهيم المأخوذة من موضوع أو عنوان البحث في كل إجراءات البحث الميداني من دون اشتغال هذه الدراسات على توضع إحصائي يبرر استعمال أو ربط الإجرائية بالتجريب.

وبما ان التعريف الاجرائي هو نشاط يجب أن يتم قبل بدء البحث في المنهجية الكمية، فإنه يفهم في المنهجية الكيفية كنشاط قلما يتم قبل بدء البحث، والاعلم أنه يؤدي في اثناء اجراء البحث عندما يكون الباحث قد اكتسب فهم الظاهرة^(١٣).

إن الفكرة الأساسية والدور التبادلي بين النظرية والنموذج والمنهج في الدراسات الانثروبولوجية هي أن تصف منهجياً الظاهرة الملاحظة من خلال الطريقة المتبعة (المنهج) بخطوات تعتمد على أدوات كيفية (الملاحظة بالمشاركة، المقابلة، الإخباريين) ومن ثم تثبيت المعطيات المستخلصة أثناء الوصف عن طريق تفسيرها وتثبيتها بقال مفاهيمي، ويتم التفسير بواسطة مجموعة من التصورات النظرية غير المقيدة للباحث، أو الخروج بتصورات نظرية جديدة من المادة الخام المستخلصة من الميدان، وإجمالاً فإن الدراسات الانثروبولوجية المثبتة في نموذج القرية قد حوّلت دراسة كل من (الاهوار والراشدية وشتاتة) إلى نموذج نظري وسارت عليه. وبعقداً أن هذا الأمر ناتج من تشابه طبيعة المجتمعات القروية وبنيتها الثقافية النسبية، إلا أن الإشكالية المنهجية تكمن بالاعتماد على الافتراض المسبق والخلط بين المسميات ومضامينها، مثل استعمال النظرية البنائية الوظيفية والمنهج الوظيفي، وعدم التفريق بين النظرية والنموذج كموجهات تفسيرية للبحث والمنهج كخطوات تعتمد على الحواس لدى الباحث في الميدان، مما أفرز نتائج متقاربة مع بعضها.

إن اشتقاق الأسئلة التي يعتمد عليها الباحث من النظرية، وبتصورات مسبقة بين البناء الاجتماعي والوظائفية التي تشكل ديمومته واستقراره تعدّ من أهم السمات التي ادت الى نمطية التوجهات

(١٢) علاء الدين جاسم مصطفى، التفسير في العلوم الاجتماعية، دراسة في فلسفة العلم، مصدر سابق، ص ٧٧.

(١٣) جيامبيرو جوبو، اجراءات البحث الاثنوجرافي، ترجمة: محمد رشدي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٩١.

الانثروبولوجية العراقية، بل أن الاهتمام بكتابة الأبعاد التاريخية وافترض مبدأ التغيير الاجتماعي المادي وانعكاساته المعنوية على طبيعة التعاملات الاجتماعية أوجد ثنائية من التقديرات المسبقة، ففي الوقت الذي انطلقت فيه الدراسات الانثروبولوجية من الاوار في جنوب العراق لتجسد المنظور الكلاسيكي للبنائية الوظيفية وتبحث في طبيعة العلاقات الاجتماعية للمجتمعات البسيطة الصغيرة (القرية)، جاءت دراسات الانثروبولوجي فريدريك بارث (fredrik barth) لقرى الاكراد في شمال العراق لتتحارب الاتجاه الكلاسيكي الذي يركز على وصف الاطراد والانتظام، إذ أوضح البحث كيف ان بارث يركز على الفرد لفهم عمليات التفاعل الاجتماعي في حين أن الوظيفية تركز على مستوى النظم والأنساق^(١٤).

طرح (بارث) توجهاً نظرياً من خلال دراساته الميدانية عرف اصطلاحاً باسم النماذج المولدة (Generative Models) عند دراسته للنظم الاجتماعية، إذ اهتم بدراسة الصورة (Form) في الحياة الاجتماعية التي تتكون من خلال التسلسلات المتسقة في السلوك ضمن مجموعة كبيرة من الفقرات (المهام) التي يقوم بها الفرد، أي وصفها بارث بأنها المختلفة عن تلك النماذج المقدمة من أتباع المدرسة الوظيفية البريطانية بشكل خاص، والتي تركز على اهتمام الباحث كنقطة أساسية (اثنوجرافيا استقرائية)، والسبب في ذلك يعود إلى الاعتماد المسبق للباحث على نماذج مشيدة أو نحو وصف الأنماط السلوكية للصورة الاجتماعية، عندها تكون السمات البنائية معروضة أمام الباحث، وثابتة عند دراسته للمجتمع، ويضيف أن النماذج التي نقدمها تختلف عن تلك المتبعة في المدرسة البنائية الوظيفية عند دراسة السلوك المعروض بهيئة صورة اجتماعية، إذ أنها ليست معدة لتكون مماثلة لما تمت ملاحظته عن انتظام الحياة الاجتماعية قيد الدراسة (اثنوجرافيا حوارية)، وإنما عوضاً عنها، هي المصممة لكي تماثل ما هو ملاحظ في انتظام الحياة الاجتماعية وبإجراءات محددة تستطيع توليد مثل هذه الانتظام (اثنوجرافيا انعكاسية)^(١٥).

لهذا، فان بارث يهتم بإنتاج نماذج إرشادية من الميدان ليعتمد عليها منهجياً في توليد العديد من الصور وتأويلها لفهم طبيعة العلاقات الاجتماعية، وهنا يكمن مبدأ الاعتماد المتبادل بين النظرية المسبقة والنموذج الإرشادي (من الميدان) والمنهج الذي يصف ويولد ويفسر أشكال المؤانسة في الحياة الاجتماعية بالملاحظة التشاركية. وغير بعيد عن هذا الطرح، نجد اننا في نقدنا للتوجهات الانثروبولوجية العراقية لا نختلف عن النقد الموجه للدراسات السوسيولوجية العراقية التي تعتمد على تجريب الابعاد النظرية الجاهزة بافتراضاتها، وصب المجتمع او الظاهرة المدروسة بقالها المفاهيمي والافتراضي، وهذا ما فعلته الدراسات الانثروبولوجية باعتمادها على المؤسسين لدراسات للقرية وجعلها بمثابة نظرية تنطبق افتراضياً على كل القرى، بدءاً بهيكلية الرسالة او الاطروحة، والمنهجية، وحتى النتائج.

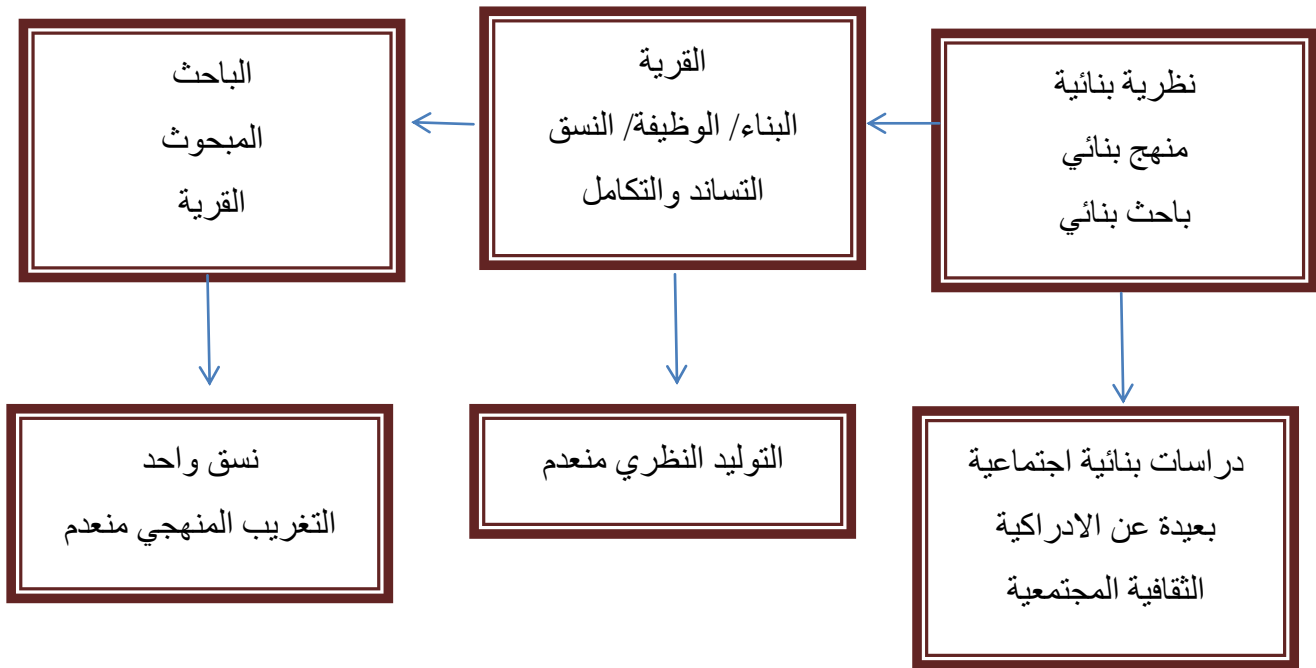
(١٤) ينظر: إدريس سالم الحسن، من قضايا الانثروبولوجيا المعاصرة، بارث والوظيفية، المجلة العربية

للعلوم الانسانية، جامعة الكويت، العدد ٢٧٤٠، ص.

(١٥) إدريس سالم الحسن، من قضايا الانثروبولوجيا المعاصرة، بارث والوظيفية، مصدر سابق، ص ٤٦.

وتأسيساً على الملاحظات الرئيسة على نموذج دراسات القرية، فأنا نود ان نؤشر خط سير المرجعيات الانثروبولوجية العراقية في هذا الاتجاه، اذ تقسّمت بين كل من الانثروبولوجيين (شاكر مصطفى سليم، وعلاء الدين جاسم البياتي، وخالد الجابري، وقيس النوري، وعبد علي سلمان، وادهم الجبوري، وقحطان الناصري)، وتشكل البنائية الوظيفية المرجع الاساس لمنهجياتهم، الا ان امتداد هذه المرجعية لم يستمر على وفق ما بدأ به الدكتور شاكر مصطفى سليم الذي انتهج اسلوب المدرسة البريطانية، اذ تعرض الى قطع واعادة توجيه من قبل الدكتور علاء الدين جاسم ومن تلاه في ترسيخ المدرسة المصرية المعدلة من صورة الانثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية التي تنتمي بامتياز الى التوجهات السوسيولوجية والتي عرفت بالاتجاه السوسيوانثروبولوجي، فيما ذهب كل من النوري والجابري وسلمان والجبوري الى انتهاج منهج بنائي يقترب من التفسيرات الثقافية التي تتوافق مع الدكتور سليم في المزوجة بين البناء الاجتماعي والبناء الثقافي، وهي الرؤية التي اسس لها مالمينوفسكي داخل المدرسة البريطانية التي افلح العديد من تلاميذ مالمينوفسكي بنقد هذا الاتجاه وتعديله.

نموذج يوضح طبيعة الاشكالية بين العمل المنهجي والتأطيرات النظرية في دراسات القرية



المبحث الثاني: انثروبولوجيا التغير الاجتماعي:

التغير بكل أشكاله هو المحور الرئيس الذي تدور حوله التوجهات المنهجية للأنثروبولوجيا الاجتماعية التي انتقلت فيها الدراسات من المكان (القرية) كدراسة أنثروبولوجية إلى المفهوم المحوري للعنوان كظاهرة يتركز البحث حولها، ومثال على ذلك (التنشئة الاجتماعية، التحديث، التكيف، الاتصال، التغير، التحضر، الهجرة، التبادل، التريف، الاكتظاظ، العشوائيات) فقد سارت هذه الدراسات بافتراض ان التغير - وان اختلفت مدياته - قد اثر على شكل البناء العلائقي للمجتمع وثقافته، وهذه الدراسات لا تختلف كثيرا عن طبيعة النموذج الأول إلا في صياغة العناوين وميدان الدراسة، وفي بعض الأحيان جاءت متشابهة إلى حد ما في المنهجية، اما الاختلاف الأساس فيمكن في الانتقال من القرية إلى المدينة أو البقاء في القرية، وبتأثير المزاجيات الاكاديمية، اختفى اسم المكان وحل محله عنوان معين، ونصل من ذلك إلى تصنيف الدراسات من خلال موضوعاتها تحت اتجاه التغير وكما يلي:

نموذج دراسات التغير:

ت	الموضوع	المكان	السنة
١.	تغير القيم الاجتماعية وأثره على التنظيم الاجتماعي - دراسة انثروبولوجية لقرية ألبو طعمة.	صلاح الدين	١٩٧٤
٢.	التنشئة الاجتماعية في قرية الذهب الأبيض دراسة انثروبولوجية.	بغداد	١٩٧٦
٣.	الإصلاح الزراعي وأثره على التنظيم الاجتماعي الريفي - دراسة ميدانية لقرية الانتصار.	بغداد	١٩٨٢
٤.	التحديث في أسرة قوش تبة.	الموصل	١٩٨٣
٥.	التكيف الاجتماعي في مزرعة نساء.	بغداد	١٩٨٩
٦.	الاتصال الجماهيري وتنمية الشخصية الريفية - دراسة ميدانية	بغداد	١٩٨٩
٧.	التغير الاجتماعي والقيمي في مركز السليمانية	السليمانية	١٩٨٩
٨.	التنشئة الاجتماعية في ناحية النمرد دراسة انثروبولوجية	الموصل	١٩٩١
٩.	التغير القيمي في المجتمع الريفي	ديالى	١٩٩٤
١٠.	واقع الحياة الاجتماعية للأسرة الفلاحية في قرية بدران في الراشدية س دراسة انثروبولوجية	بغداد	١٩٩٨
١١.	التغير الاجتماعي في قضاء الراشدية	بغداد	١٩٩٩
١٢.	تحضر الضواحي دراسة في الانثروبولوجيا الحضرية لقضاء ابو غريب	بغداد	٢٠٠٢
١٣.	التغير البنائي في مدينة الصدر دراسة انثروبولوجية	بغداد	٢٠٠٥
١٤.	الاستقرار والتغير لطائفة الصابئة المندائيين	صلاح الدين	٢٠٠٥
١٥.	التغير الاجتماعي في مدينة الفلوجة دراسة انثروبولوجية	الانبار	٢٠٠٤
١٦.	التغير الاجتماعي في قضاء الطارمية - دراسة انثروبولوجية	بغداد	

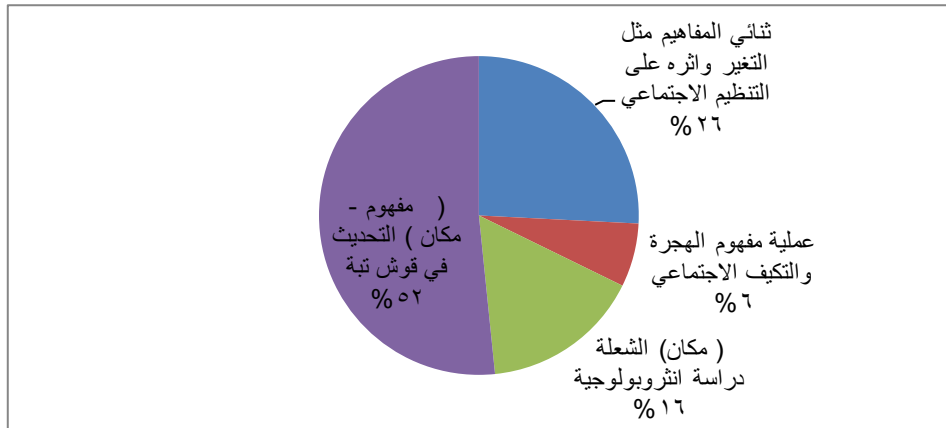
ت	الموضوع	المكان	السنة
. ١٧	التغير الاجتماعي في مركز قضاء الحويجة دراسة انثروبولوجية	صلاح الدين	
. ١٨	التغير الاجتماعي والاقتصادي في قرى عشائر العنكبكية - دراسة انثروبولوجية اجتماعية	الانبار	٢٠٠٨
. ١٩	تغير السلطة الابوية واثره في تبادل الآراء في الاسرة العراقية	بغداد	٢٠٠٥
. ٢٠	الهجرة والتكيف الاجتماعي دراسة انثروبولوجية	بغداد	٢٠٠٥
. ٢١	التبادل واثره في توثيق العلاقات الاجتماعية	بغداد	٢٠٠٦
. ٢٢	التغير الاجتماعي واثره في التنظيم الاجتماعي : زواج، اسرة، قرابة، دراسة انثروبولوجية اجتماعية لقرية الصوفية	الانبار	٢٠١٠
. ٢٣	النظام القبلي والدولة في المجتمع العراقي دراسة انثروبولوجية في بغداد	بغداد	٢٠١٠
. ٢٤	العجر في العراق دراسة انثروبولوجية في التكيف الاجتماعي	العراق	١٩٩٤
. ٢٥	تريف مدينة بغداد دراسة انثروبولوجية	بغداد	٢٠١٠
. ٢٦	الاكتظاظ المنزلي والمشكلات الاسرية دراسة سوسيو انثروبولوجية	بغداد	٢٠١٠
. ٢٧	العشوائيات في مدينة بغداد دراسة انثروبولوجية (حي التنك)	بغداد	٢٠١١
. ٢٨	شبكة العلاقات الاجتماعية للعائلة الحضرية دراسة ميدانية في قضاء الاعظمية	بغداد	٢٠٠١
. ٢٩	مدينة الكاظمية القديمة: دراسة انثروبولوجية	بغداد	٢٠٠٨
. ٣٠	مدينة النجف: دراسة انثروبولوجية	نجف	٢٠٠٨
. ٣١	الشعلة: دراسة انثروبولوجية اجتماعية	بغداد	٢٠١٠
. ٣٢	قلعة صالح: دراسة انثروبولوجية اجتماعية	ميسان	٢٠١٠
. ٣٣	التهجير القسري واثاره الاجتماعية على الاسرة المعاصرة دراسة انثروبولوجية اجتماعية	بغداد	٢٠٠٨

إن المفهوم هو فكرة جزئية. ولا تستقيم الفكرة الكاملة إلا بتسويق سلسلة المفاهيم منطقياً مع بعضها، ويأتي استعمال معظم العلماء لمفاهيم تجريدية (Abstract Concept) في عناوين الموضوعات التي يختارونها لغرض التحديد والتوضيح^(١٦). فبعد دخول الدراسات الانثروبولوجية المديات الحضرية ودراسة المجتمعات المركبة والاهتمام بموضوعات متعددة مثل البطالة والاستهلاك والهجرة والتبادل، وكذلك اتساع الحيز المكاني أمام الباحثين الانثروبولوجيين، دفعهم ذلك إلى توضيح المرتكز الأساس للدراسة من خلال تحديد الموضوع (عنوان البحث) بمفاهيم تتخذ في الغالب بعداً اجتماعياً أو ثقافياً. والملاحظ على الدراسات المشار إليها في نموذج التغير بأنها تتوزع على وفق منهجية "تبريرية" تهدف إلى تثبيت التخصص أولاً، والخروج من مأزق المكان (المكرو - الميكرو) ثانياً، وتقديم العلاقات السببية في

(١٦) عبد الغني عماد، منهجية البحث في علم الاجتماع، بيروت، دار الطليعة، ط ١، ٢٠٠٧، ص ١٢٨.

ثنائيات منهجية تتوزع بين البعد النظري للموضوع (مفاهيم ثنائية ومتغيرات)، أو على أساس المنهجية (الاتجاه السوسيوانثروبولوجي) ثالثاً، ويأتي الجزء الأكبر منها ليركز على مفهوم معين ومكان للدراسة سواء أكان مجموعة قرى أو قضاء أو مركز وصولاً إلى المدينة، وكل هذه المبررات تصب في إشكالية الزمن المنهجي والزمن الاجتماعي، وبالتالي يأتي تقديم تبريرات المكان.

مخطط رقم (١) يوضح طبيعة الموضوعات الانثروبولوجية التغير



إن اهتمام الباحثين بتقديم مفهوم أحادي يرتبط مع مكان الدراسة، جعل من التوجهات المنهجية والمعاشية الميدانية تصب في محور المفهوم، وهي في الغالب دراسات بنائية وظيفية اتخذت من افتراض التغير الاجتماعي آلية منهجية للخروج من إشكالية المكان، على أساس أن منهجية البحث الانثروبولوجي (الملاحظة، المقابلة، المعاشية) لا تستطيع السيطرة على الميدان الواسع كالمدينة والقضاء، فجاؤ التركيز على مفهوم أحادي يختزل الباحث بواسطته المجال المكاني الواسع. إلا ان مرجعية هذا المفهوم بقيت مسنودة بالنظرة الكلاسيكية للبنائية الوظيفية.

وتأتي في المرتبة الثانية ثنائية المفاهيم ومكان الدراسة، أو ما يعرف بجذلية المتغيرات كنموذج مصنوع يتبعه الباحث في منهجيته، فالمتغيرات هي بمثابة خواص الشيء وعلاماته الخارجية التي يستخدمها الباحث كي يبني بواسطتها وعن طريقها المعطيات في الواقع المحسوس، فالمتغيرات تختلف تبعاً لأوضاعها في البحث، فهي تارة كمية كما يمكن أن تكون تراتبية أو نوعية عندما تعطي اتجاهها للعناصر التي يهتم الباحث بدراستها^(١٧).

فالمتمغيرات في المنهجية السوسيوولوجية أداة اجرائية موحدة لقياس الظاهرة، أما في الاشتغال الانثروبولوجي فان امكانية القياس مرفوضة، فالمتمغيرات ادوات اجرائية تعتمد على الظروف والمواقف من اجل تحسين شدة وقوة تفسير المعطيات الانثوجرافية تزامنياً بين الباحث والموضوع الملاحظ^(١٨). والملاحظ على التوجهات التي تهتم بدراسة مجتمع معين وفق المنظور الانثروبولوجي بثنائيات

(١٧) عبد الغني عماد، منهجية البحث في علم الاجتماع، مصدر سابق، ص ١٩٨.

(١٨) جيامبيترو جوبو، مصدر سابق، ص ١٩١.

التأثير والأثر، أنها أفرزت منهجية مقيدة للباحث عن طريق ارتباط الزمن المنهجي أو المعرفي للباحث بتفسيرات مسبقة. ومثال على هذا (تغير القيم الاجتماعية واثر على التنظيم الاجتماعي) أو (تغير السلطة الأبوية وأثره في تبادل الأدوار في الأسرة العراقية)، فالمقصود بالزمن المعرفي للباحث هو: الأطر النظرية التي بواسطتها يفسر ويفهم المعطيات في أثناء الملاحظة، فإذا ارتبطت ذهنية الباحث بمفاهيم ومتغيرات مسبقة فإن التحليل يقتصر في إطارها، وهذا يكون منافياً لمنهجية البحث الانثروبولوجي المنتجة للنظرية باختلاف التصورات والمعطيات.

وتأتي إشكالية الزمن الاجتماعي لتؤثر بعض التغيرات الحاصلة في هذا المفهوم الذي يدل على زمن المعاشية الفعلية للباحث لمجتمع الدراسة والتي لا تقل عن سنة، حسب رأي (الانثروبولوجست مالنوفسكي)، إن اغلب الباحثين هم من أفراد مجتمع البحث، وبالتالي فالموضوعية الميدانية تتعرض للخطر جراء اقتصار التأويل التحليلي على منظور الباحث، أو صفات مجموعة صغيرة قيد البحث، وفي الغالب فإن أفراد المجتمع لا يجدون الغرابة أو الاختلاف في مجتمعاتهم بصورة واضحة، وبالتالي ينعكس هذا الفهم في تعاملاتهم اليومية وفي ثقافتهم المادية والمعنوية فتأتي النتائج بصورة تقليدية (اي لا يتوافر شرط التغريب المنهجي وهو شرط اساس لفهم المعطيات الكيفية وتحليلها)، أما الدراسات المتبقية، فقد جاءت لتركز على دراسة المدينة بمنظور تقليدي لا يختلف عن نموذج القرية، والاختلاف الوحيد في هذه التوجهات هو التركيز على السمات الجوهرية للمدينة للخروج من إشكالية الاتساع الميداني، فقد جاء التركيز على الطابع الديني ليكون المحور الأساس الذي يفهم من خلاله البناء الاجتماعي، فمدينة الكاظمية القديمة والنجف القديمة تشكلان تحدياً كبيراً للباحثين الذين ينتهجون الأدوات الكلاسيكية، وينتج عن هذا ان هذه الدراسات ركزت على التأريخ الاجتماعي لفهم طبيعة المدينة والتطورات التي مرت بها.

والسؤال الجوهرى هنا، الذي يجب على الانثروبولوجيين ان يوجهوه الى انفسهم بشأن النظرية الانثروبولوجية عبر الزمن، وفي اي لحظة من الزمن، يتعلق بالطبع بما اذا كانت هذه المفاهيم الحارسة، هذه الكنايات النظرية، تعكس حقيقة شيئاً مهماً بشأن المكان المطروح للبحث، أم تكشف عن فرض اعتباطي نسبياً لاهواء موضوعة انثروبولوجية على اماكن معينة.... فوق ذلك، هناك مشكلة اخرى، وهي العلاقة بين المكان والمقارنة والتعميم، في النظرية والمنهج الانثروبولوجي، تصبح المقارنة صعبة بقدر تأثر التنظير الانثروبولوجي بشكل غير واع، باننتقال مواضع انتاجه، لان البعد النقدي للتباين، ليس فقط في المعطيات، ولكن في العلاقة بين الملاحظ (الباحث) والملاحظين (المبحوثون) لم يتم اختباره حين كانت الملاحظة والتعميم ناجحين في الانثروبولوجيا، كان ذلك غالباً في سياق المجتمعات الصغيرة، وفي شأن نواح عالية التنظيم للحياة الاجتماعية، مثل القرابة، لكن، كلما كانت المجتمعات محل النظر اكثر تعقيداً، وكتابية، وتاريخية، كلما اصبح تحقيق النزع من السياق اصعب¹⁹.

¹⁹ مجموعة من الباحثين، كيف نقرأ العالم العربي، ترجمة: شريف يونس، دار العين للنشر، الاسكندرية،

وتأسيساً على ما طرح في المبحثين الاول والثاني، ولبيان دور المكان في عملية الممارسة المنهجية للبحث الانثروبولوجي، فاننا نستجلي بعضاً من المفاهيم الحارسة للتوجهات العراقية السابقة والتي طبعت الهوية الانثروبولوجية المحلية بخط عمل منفرد يعتمد البناء الاجتماعي والنسق والقبيلة والقرية والتغير الاجتماعي والمضيف والعصبية هي كلها مفاهيم عكست التجريدات المقتبسة من المدارس الغربية والمصرية وتجاوزت ان لكل بناء اجتماعي منظومة ثقافية تختلف باختلاف الاماكن ودلالاتها اللغوية.

المبحث الثالث: الاتجاه الثقافي:

استحوذ مفهوم الثقافة Culture على حيز واسع من التوجهات التأسيسية للمدرسة الانثروبولوجية الأميركية التي سعت إلى فهم طبيعة المجتمعات البسيطة والمعقدة، وقد ارتبطت هذه الاهتمامات بمنهجية أنثروبولوجية جعلت من مفهوم الثقافة هوية معرفية (اتجاه نظري) وأداة تحليلية (منهجية اداتية) يرتكن إليها أهل التخصص في دراساتهم الميدانية.

وبما أن الثقافة ظاهرة نسبية، فإن المنهج والأبعاد النظرية هي نوع من النسبية المعرفية التي لا تعمل في كل المجتمعات، وعلى هذا الأساس اهتم العديد من الانثروبولوجيين بتوجهات بواس (النسبية الثقافية)، وبصور مختلفة، فقد قدم الفرد كروبر (A. Kroeber) فكرة المنطقة الثقافية بتوضيحه العلاقة الوثيقة بين العناصر الثقافية والبيئة... وكان يرى أن المنهج التاريخي هو الوسيلة المناسبة للكشف عن الأنماط الثقافية، والتاريخ عندما يأخذ الباحث في اعتباره عنصري الزمان والمكان، فالى جانب الدراسة التاريخية التي تعنى بدراسة الظواهر في أزمان متعاقبة، توجد دراسة تاريخية أخرى تعنى بدراسة زمن محدود في مجتمع معين كما يفعل الباحث في دراسته الحقلية، وهنا نجد أن الأعمال الانثروبولوجية وعلى وفق التصنيف السابق تعتمد إلى معالجة الزمن في الأساس عبر أشكال إدراكه، والتصورات التي ينتج عنها، وطريقة احتسابه وإدارته وعلى مختلف الأصعدة^(٢٠). حيث يتجسد هذا النمط المنهجي في بعض الدراسات العراقية ومنها (القيم الحضارية واثراها في استعمال الزمن) و(الإيقونة في النمط الثقافي الفرعي)، ومما لاشك فيه في أنثروبولوجيا الزمن لا تفضل عن أنثروبولوجيا المكان، ولكن الإشكالية تكمن في كيفية أو إمكانية الباحث الانثروبولوجي موضوعية في الفصل والجمع بين الزمن المنهجي والزمن الاجتماعي عندما ينتقل من المحسوس إلى المدوّن وخرارطته المكانية.

أذن فأيدولوجية الثقافة موجودة في عقول أفرادها، ويتولون نقلها من جيل إلى جيل، ومن الممكن إخضاعها للتحليل ككيان موحد، ومثل هذا المدخل البواسي يساعد على تكوين صورة وصفية عن الثقافات، ولكنه في الوقت نفسه يركز على الكيان الجماعي على حساب الفروق الفردية وبالعكس، وعلى المعايير التي تحدد ما ينبغي أن يكون أكثر من الملاحظات التي تتصل بما هو كائن بالفعل، وعلى ما يعتقد الأفراد أكثر من كيفية توفيرهم لوسائل معيشتهم^(٢١).

والى جانب هذه الاتجاهات التي كانت متأثرة بآراء بواس ظهرت اتجاهات أخرى أخذت خطأً فكرياً جديداً يحبذ الوصول إلى القوانين والتعميمات، ويبحث عن العلاقة السببية، ويهتم بالعناصر الاقتصادية والبيئة والتكنولوجية وتأثيرها في التغير الثقافي، وعلى الرغم من أن كلاً من ليزلي وايت L.

(٢٠) بيار بونت، ميشال إيزارن معجم الأنتولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة: مصباح حمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦، ص ٥٣١.

(٢١) فتحية محمد إبراهيم، مصطفى حمدي الشنواني، الثقافة والبيئة مدخل إلى دراسة الأيكولوجيا الثقافية، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٩٨٨، ص ٢٢.

White، جوليان ستيوارد J. Steward درساً في البداية على أيدي تلاميذ بواس إلا أن هويت اتجاهه بعد ذلك نحو إحياء التطورية في حين اتجاهه ستيوارد نحو دراسة التفاعل بين العوامل الثقافية والبيئية^(٢٢).

لقد أكدت هذه الاتجاهات على جانب حيوي في دراسة وتحليل الثقافة وهو التغيير والتعقيد... حيث قدم وايت قانون للتطور يقول فيه أن الثقافة تتطور وتتدرج في ضوء زيادة الطاقة المتاحة للاستعمال الإنساني... فالثقافة هنا ما هي إلا نسق لانتاج الطاقة والتحكم فيها وهي استمرارية زمنية للأشياء والأحداث المعتمدة على الرمزية، ويؤكد وايت على استعمال مفهوم الثقافة عند أدوارد تايلور عندما يشير إلى الثقافة على أنها تتكون من الآلات والمعدات وأدوات الزينة واللغة والفن وكل ما يصنعه الإنسان، أما الرمزية فهي كما يقول وايت، القدرة على الابتكار ومنح أو إضفاء معاني للأشياء أو الأحداث، وفي نفس الوقت هي القدرة على التقاط هذه المعاني وتداولها^(٢٣).

أما ستيوارد فقد نظر إلى الثقافة من زاوية تفاعلها مع البيئة لتحقيق التكيف، وحل عملية التفاعل بين العوامل البيئية والعوامل الثقافية، واعتبرت أن العوامل الثقافية الأكثر تأثيراً بالبيئة من حيث استغلالها والتكيف معها تشكل لب الثقافة Culture Core، وهي تتمثل بصفة أولية في التكنولوجيا والتنظيمات الاقتصادية... وأطلق ستيوارد على اتجاهه اسم الإيكولوجيا الثقافية Cultural Ecology^(٢٤).

وهنا نجد منهجية كل من وايت وستيوارد تحتكم إلى الانتاج والتبادل والاستهلاك على وفق بنية زمنية يراد منها فهم عملية التكيف الاجتماعي والتواصل الثقافي، وقد تجسد هذا المنظور في إطار بعض الدراسات الانثروبولوجية العراقية ومنها (ثقافة الاستهلاك في المجتمع العراقي) و(الدليل والإشارة في ثقافة الأسرة العراقية).

إن الجمع بين التوجهات النظرية السابقة الذكر في إطار منهجي موحّد ليست بالعملية الهينة على صعيد السياقات المعرفية للتوجهات الأكاديمية الانثروبولوجية، كون بعض الافتراضات النظرية والنماذج المجردة جاءت بصورة متعاقبة وعلى أساس الانتقاد لما سبق من توجه نظري، إلا أن هذا لا ينفي وجود بعض المحاولات الواضحة والمستترة على الصعيد المحلي.

فعلى صعيد الدراسات الانثروبولوجية العراقية، جاءت أطروحة التعددية الأثنوية دراسة أنثروبولوجية في مدينة بغداد لتقدم صورة مبدئية للجمع بين أطر المناهج وأبعادها النظرية مع ضمان عدم التقاطع، ويشير الباحث إلى إمكانية اعتماد طريقة فاعلة يسميها بـ(الاجتزاء المنهجي) Systematic Selection

(٢٢) فتحية محمد إبراهيم، مصطفى حمدي الشنواني، مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان، مصدر سابق، ص ٣١.

(٢٣) محمد سليمان الحداد، محمود يوسف النجار، الانثروبولوجيا مقدمة في علم الإنسان، المطبعة الدولية، الكويت، ١٩٨٨، ص ٢٢٩.

(٢٤) محمد سليمان الحداد، محمود يوسف النجار، الانثروبولوجيا مقدمة في علم الإنسان، ص ٣٢.

Approach، أي اجتزاء عناصر بعينها من مناهج عدة بما يتناسب وموضوعة الدراسة والخروج بتوليفه تُعتمد في تحقيق هدف الدراسة بمسوغاتها الممنطقة علمياً^(٢٥). وقد جمع الباحث في منهجية الاجتزائية العديد من التوجهات النظرية المنتمية إلى مدارس متنوعة ومتقاطعة من دون أن تؤثر هذه التوجهات على المنهجية المسيرة لهدف الدراسة والميسرة له والتي اهتمت بدراسة التعددية الأثنية في المجتمع العراقي. وتأسيساً على ما سبق ذكره في التوجهات النظرية السابقة فإن عملية الجمع بين التنظير الإرشادي والآلية المنهجية على اختلاف أدواتها ودخول الميدان ومحاولة تدوين اللحظات العابرة للحياة الاجتماعية والخروج بنصوص معرفية أولية تختلف من منهج إلى آخر، ويمكن حصر المناهج التي ارتكنت على التوجهات السابقة ورسم مقارنة تتيح لنا الولوج إلى طبيعة الإشكالية المنهجية في الدراسات العراقية، فالمنهج التاريخي والمعرفي والاثنوجرافي والرمزي والوظيفي كلها مناهج تم استخدامها في التوجهات السابقة، إلا أننا وجدنا هذا الاستعمال لم يختلف في العديد من الدراسات العراقية المؤشرة في نموذج الدراسات الثقافية ومثال ذلك المنهج الاثنوجرافي الذي يختلف من مدرسة إلى أخرى، فالمدرسة البريطانية الاجتماعية تفهم الاثنوجرافية بصورة تختلف عن المدرسة الأمريكية الثقافية. إذ أن مصطلح (الأثنوجرافيا) مشتق، شأن أغلب تسميات العلوم، من كلمتين يونانيتين أحدهما (أثنوس) ومعناها شعب، والأخرى (جرافيا) وتعني كتب، وصف^(٢٦).

والملاحظ أن عبارتي أثنولوجيا Athnology وأثنوجرافيا Athnology أنها تستعمل بمعاني متقاربة في المدارس الأثنوبولوجيا، وعند التمييز بينهما يشار إلى الأثنوجرافيا مهمة جمع المعطيات التي تحللها الأثنولوجيا، وعندما قام ليفي ستروس بنقل عبارة (أثنوبولوجيا) من المدرسة الأمريكية إلى فرنسا فرض على الأثنوجرافيا مهمة جمع المعطيات، وعلى الأثنولوجيا مهمة تحضير مادتها على صعيد المجتمعات الخاصة، وعلى الاثنوبولوجيا مهمة إجراء التحليل المقارن للمجتمعات والثقافات، وتغذية التأمل النظري، هكذا تتدخل الأثنوجرافيا في المرحلة الأولى من العمل الأثنوبولوجي (الدراسة الحقلية) فعندما نتكلم عن (منهج اثنوجرافي) نقصد مجمل المناهج الكيفية أو طرائق البحث ولا نكتفي بذكر منهج وصفي، وبهذا الخصوص يصبح التحدث عن منهج اثنوجرافي بالمفرد مخادعاً بعض الشيء^(٢٧).

ويبدو لنا على أساس الطروحات السابقة أن أي بحث أنثروبولوجي يتم بواسطة منظور أحادي وتقنية أدائية واحدة، يكون عاجزاً عن الإحاطة بكل جوانب الميدان، إذ تكون النتائج جزئية، وعلى هذا الأساس جاءت طروحات الاثنوبولوجست كليفورد جيرتز Clifford Geertz في الدراسات الثقافية لتقدم

^(٢٥) عبد الوهاب خزعل عبد الباقي، التعددية الأثنية: دراسة أنثروبولوجية في مدينة بغداد، أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠١١، ص ٩.

^(٢٦) برومليه بودلين، الأثنوس والتاريخ، ترجمة: طارق معطراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨، ص ٨٨.

^(٢٧) بيار بونت، ميشال إيزار، معجم الأثنولوجيا والأثنوبولوجيا، مصدر سابق، ص ٢٢.

منظوراً أنثوجرافياً يتعدى مرحلة الوصف أو جمع المعطيات لينتقل إلى بناء النصوص في الميدان وتشكيل النماذج التصويرية الأولية ومقارنتها مع إدراك الأهالي لمجتمعهم إضافة إلى البناءات التي يشيدها المخبرين عن مجتمعهم، أي هي طريقة ذات معالم منهجية واضحة تقوم على أساس قاعدة (الوصف الكثيف) إذ تجمع بين استحصال المعطيات وتحليلها في فترة تزامنية يرتبط فيها البعد النظري بالميداني. ومن منطلق اهتمام جيرتزر بدراسة المعاني المتضمنة في الرموز أو الأفعال أو الأحداث أو الموضوعات، فإنه طور الدراسة الاثنوجرافية وعمقها وجعل منها منهجاً أطلق عليه الوصف المكثف Thich Description الذي هو جوهر المدخل التأويلي الرمزي^(٢٨).

ويحدد جيرتزر أربعة خصائص هامة تميز الوصف الأثنوجرافي المكثف وهي: أولاً: أنه تأويلي، ثانياً: أن ما يؤوله أو يفسره هو سياق الخطاب الاجتماعي، وثالثاً: التأويل يتضمن محاولة تأمين أو حماية ما (يقال) في مثل هذا الخطاب الاجتماعي من المواقف أو الظروف التي يمكن أن تمحوه وذلك من خلال تدوينه في حدود أو كلمات أو مصطلحات يمكن تتبعها، رابعاً أن مثل هذا الوصف يكون محلياً ومكثفاً ومن منظور تفصيلي دقيق Microscopic أو يسعى إلى الوصول إلى أدق التفاصيل^(٢٩).

وتعمل منهجية الوصف الكثيف على مستويين، الأول: أنها تقدم تقارير مكثفة عن العالم الذي يعيش فيه الأفراد وهذه التقارير تكون من داخل المجتمع أو طبقاً لرؤى الأفراد أنفسهم أي تحليل من الداخل Emicanalysis. ثانياً: التفكير والتأمل بإمعان في الأسس المعرفية والفكرية لهذه التقارير بغرض استنتاج الرموز أو أنساق الرموز والمعاني المرتبطة بها ويعرف ذلك بتحليل من الخارج Etic Analysis يقوم به الباحث^(٣٠).

وهكذا فإن مهمتنا المزدوجة والكلام لجيرتزر هي في الكشف عن البنى المفهومية الكامنة خلف أفعال الأشخاص الذين نتابعهم، أي "المقول" في الخطاب الاجتماعي، وفي بناء نظام للتحليل تبرز في إطاره المميزات المكونة لهذه البنى، أي ما يتعلق بهم بوصفهم ما هم عليه، أما الاثنوجرافية فتمكن وظيفة النظرية في تقديم المفردات التي يمكن بواسطتها التعبير عما يعبر عنه الفعل الرمزي عن نفسه أي دور الثقافة في الحياة الإنسانية^(٣١). إذ نجد أن جيرتزر جعل الصياغات النظرية المختلفة تحوم على علو منخفض فوق التأويلات التي تخضع لسيطرتها وبصورة غير مقيدة بحيث أن هذه التأويلات لن يمكنها أن تقدم أهمية كبيرة إذا فصلت عن تلك الصياغات... أن المهمة الأساسية لبناء النظريات هنا ليست في تعقيد الأشياء النظامية المجردة بل في التمكين من إجراء التوصيف.

(٢٨) السيد حافظ الأسود، الأثنوبولوجيا الرمزية، منشأة المعارف، الاسكندرية، ٢٠٠٢، ص ١١٦.

(٢٩) السيد حافظ الأسود، الأثنوبولوجيا الرمزية، مصدر سابق، ص ١١٦.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١١٧.

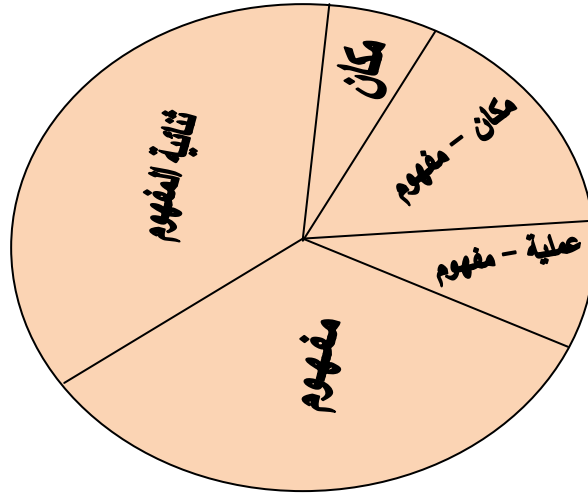
(٣١) كليفورد جيرتزر، تأويل الثقافات، مصدر سابق، ص ١٢٢.

وفيما يأتي بيان لأهم الدراسات الثقافية في هذا الاتجاه:

ت	الموضوع	المكان	السنة
١.	القيم الحضارية وأثرها في استعمال الزمن.	بغداد	١٩٨١
٢.	الكائنية - دراسة أنثروبولوجية للحياة الاجتماعية.	الموصل	١٩٨٥
٣.	اتجاهات الشخصية الفلسطينية المعاصرة في بغداد.	بغداد	١٩٨٦
٤.	العلاقات المتفاعلة بين المؤسسة الأسرية والمؤسسة الدينية وفق النظرية البنوية الوظيفية - دراسة ميدانية في مدينة كركوك.	كركوك	٢٠٠١
٥.	ثقافة السجن - دراسة ميدانية أنثروبولوجية.	بغداد	٢٠٠٣
٦.	أنثروبولوجيا السحر في المجتمع العراقي.	العراق	٢٠٠٣
٧.	القيم الثقافية وأهميتها في الاتجاه نحو مهنة التمريض.	بغداد	٢٠٠٥
٨.	سمات الشخصية الريفية المراقبة في الكتابات الاجتماعية الانثروبولوجية.	نظري	٢٠٠٥
٩.	التعاون والتغالب في المجتمع العراقي - دراسة أنثروبولوجية في مدينة بغداد - حي الجزائر أنموذجاً.	بغداد	٢٠٠٧
١٠.	سوق مردي - دراسة أنثروبولوجية ميدانية.	بغداد	٢٠٠٧
١١.	ثقافة الفقر في المناطق المهمشة - دراسة أنثروبولوجية في مدينة بغداد - سبع قصور أنموذجاً.	بغداد	٢٠٠٨
١٢.	العوامل الاجتماعية والثقافية وأثرها في تكوين شخصية المرأة العراقية.	بغداد	٢٠٠٨
١٣.	طائفة الكلدان في العراق - دراسة ميدانية في مدينة بغداد.	بغداد	٢٠٠٨
١٤.	الثقافة الفرعية لمهنة العطارين - دراسة ميدانية في سوق الشورجة.	بغداد	٢٠٠٨
١٥.	ثقافة الاستهلاك في المجتمع العراقي - دراسة أنثروبولوجية.	بغداد	٢٠٠٩

ت	الموضوع	المكان	السنة
١٦.	الثقافة والأمراض النفسية في المجتمع العراقي.	بغداد	٢٠٠٩
١٧.	القيم الثقافية وتلوث البيئة الحضرية - دراسة أنثروبولوجية في مدينة بغداد.	بغداد	٢٠٠٩
١٨.	ثقافة العنف المسلح - دراسة أنثروبولوجية في مدينة بغداد أنموذجاً.	بغداد	٢٠١٠
١٩.	ثقافة الفقر في منطقة الميدان - دراسة أنثروبولوجية.	بغداد	٢٠١٠
٢٠.	الأيقونة في النمط الفرعي - دراسة أنثروبولوجية في مدينة بغداد.	بغداد	٢٠١٠
٢١.	العشوائيات في مدينة بغداد - دراسة أنثروبولوجية في منطقة حي التتك أنموذجاً.	بغداد	٢٠١١
٢٢.	ثقافة العنف بين نزلاء السجون - دراسة أنثروبولوجية في تسفيرات الرصافة.	بغداد	٢٠١١
٢٣.	الدليل والإشارة في ثقافة الأسرة العراقية - دراسة أنثروبولوجية ثقافية بمدينة بغداد.	بغداد	٢٠١١
٢٤.	التعددية الأثنية - دراسة أنثروبولوجية في مدينة بغداد.	بغداد	٢٠١١
٢٥.	بنية العقلية العراقية - دراسة تأويلية من منظور الأنثروبولوجيا الثقافية.	بغداد	٢٠١٢
٢٦.	لعب الأطفال - دراسة أنثروبولوجية في مدينة الكوت.	الكوت	٢٠١٢
٢٧.	مجالس الملايات - دراسة أنثروبولوجية- منطقة جسر ديالى القديم أنموذجاً.	بغداد	٢٠١٢
٢٨.	الانعكاسات الثقافية للعولمة على المجتمع المحلي - دراسة أنثروبولوجية في قضاء الحويجة.	الموصل	٢٠١٢
٢٩.	الثقافات الفرعية والخطاب السياسي لأعضاء مجالس النواب في العراق - دراسة أنثروبولوجية.		٢٠١٢

وعلى أساس الموضوعات المصنفة داخل الاتجاه الثقافي نقدم المخطط الذي يوضح طبيعة هذه الموضوعات وتوجهاتها التي تهتم بالمفهوم الثقافي بوصفه الدال والمتغير الذي يستند عليه ومن خلاله الباحثين في منهجية الدراسة.



مخطط رقم (٢)

وفيما يأتي بيان لأهم الخصائص التي تميزت بها منهجية الدراسات الثقافية:

أولاً: خصائص الموضوعات: على أساس المخطط رقم (٢) وكما هو موضح فيه أن الموضوعات تركز على المفهوم الأحادي أو ثنائية المفاهيم، إذ يرسم الباحث على أساس طبيعة الموضوع مجال الدراسة والمتغيرات، فالمواضيع الثنائية تحدد للباحث المتغيرات الثقافية التي يلاحظها في الميدان، ويتم بناء موضوع البحث نظرياً وميدانياً بواسطتها، أما الموضوعات ذات الطبيعة الأحادية تمكن الباحث من رسم ثنائية بين المفهوم ومكان الدراسة وبالعكس ليتسنى للباحث إجراء الدراسة على وفق هذا السياق.

وفي بعض الدراسات الانثروبولوجية (الحديثة) نلاحظ تطور في صياغة عناوين الدراسة وهو غير مفهوم في الغالب أو يحسب على أساس تحديد ميدان الدراسة داخل المدينة الحضرية، ومثال ذلك (التعاون والتغالب في المجتمع العراقي - دراسة انثروبولوجيا في مدينة بغداد - حي الجزائر أنموذجاً)، و(ثقافة الفقر في المناطق المهمشة - دراسة انثروبولوجية في مدينة بغداد - سبع قصور أنموذجاً)، و(ثقافة العنف المسلح - دراسة أنثروبولوجية في مدينة بغداد أنموذجاً)، و(العشوائيات في مدينة بغداد - دراسة انثروبولوجية في منطقة حي التنك أنموذجاً)، و(مجالس الملايات - دراسة أنثروبولوجية - منطقة جسر ديالى القديم أنموذجاً). وتجدر الإشارة إلى أن اصطلاح الأنموذج في عنوان البحث يعني الدراسة التعميمية المقارنة والتي تتصف بها بعض الدراسات السوسيولوجية، أما التوجهات الأنثروبولوجية الثقافية والتي تركز على مبدأ النسبية الثقافية بكل سياق اجتماعي مهما كانت درجة القرب أو البعد من المجتمع ككل، ولا تتبنى التعميم المسبق، فهي أي الدراسات الانثروبولوجية الثقافية تعتمد على صناعة نموذج تجريدي من الواقع المعاش لإجراء مقارنة بينية بواسطة المبحوثين ونخبة من المخبرين إضافة إلى مدونات الباحث لصناعة أنموذج يتسم بالتجريد الأثنولوجي يفسر في مضمونه وبواسطته.

ثانياً: التفسير مقابل الفهم: لقد شغل هذا الموضوع العلوم الاجتماعية، وما زال يشغلها حتى الآن، العلوم الطبيعية تقوم على التفسير، أما العلوم العقلية فتقوم على الفهم، الأولى تفسر سببياً وتبحث في العلاقات السببية بين الظواهر، الثانية تحاول فهم دوافعهم ومغزاه^(٣٢)، إن التفسير يأخذ بأنموذج العلوم الطبيعية ويهمل بنية الواقع الاجتماعي، لكن الظواهر الاجتماعية تتكون وتفسر من خلال البشر، فهي ليست وقائع طبيعية موجودة، بل ظواهر ذات مغزى، فالهدف هو الفعل الاجتماعي ومغزاه^(٣٣). إذ نجد هذه الثنائية معمول بها داخل قسم علم الاجتماع على شكل صورة مقارنة بين المنهج الكمي الذي يشكل هوية السوسيولوجيا والمنهج النوعي الذي يشكل الانثروبولوجيا، إلا أن هذا التقسيم لا يمنع التداخل الذي حصل بين التخصصين.

وقد سارت بعض الدراسات الثقافية منهجياً باستعمالها النظرية البنائية الوظيفية بمنظورها الكلاسيكي (المماثلة العضوية)، بل أن الأمر تعدى ذلك ليدخل الاستعمال الإحصائي وبقوة تفسيرية ذات أبعاد سببية مبنية على الافتراض وبناء المقياس لموضوعة ثقافية لا يمكن قياسها كمياً بل نوعياً من خلال التوغل في الأنماط المعاشة، فالسلوك المعنوي لا يمكن تكميته أو التنبؤ به بل يتشكل فهمنا له من خلال الوصف والمتابعة والتحليل المعمق. لكن التفسير والفهم لم يبقا معبرين عن منهجين مختلفين رغم الاستخدامات الخاطئة، بل مكملين لبعضهما بعضاً، كما هو الحال في المنهج التأويلي. إلا ان عملية الموائمة بين التفسير والفهم قد تم تبنيها وبنجاح نسبي من دون الدخول في السببية الإحصائية عن طريق منهجية التوصيف الكثيف وآلية تحليل المضمون، أي استعمال الوصف وتفسير ما هو موصوف من خلال بناءات هرمية معرفية (تفسير النصوص المدونة)، اي العمل بالكم الكيفي.

ثالثاً: جزئي مقابل كلي: إن البحث الكمي يدرس الظواهر الاجتماعية، لا البنى الاجتماعية، أي الأجزاء لا الكليات، والسبب في ذلك أنه يريد عزل هذه الظواهر عن سياقها الاجتماعي، ويخضعها للملاحظة والتجربة، أما البحث الكيفي فينتقد هذا المنهج، وينطلق من دراسة البنى الاجتماعية والثقافية والمجتمع كلاً^(٣٤). هذه القواعد معمول بها في الدراسات الانثروبولوجية والسوسيولوجية عندما كان ميدان الأولى المجتمعات الصغيرة البسيطة التي يسهل السيطرة عليها، أما في الجانب الآخر فتأتي في الدراسات السوسيولوجية والتي اتخذت من المدينة ذات المجال المكاني الواسع والتعقيد في الأنماط المجتمعية وطبقتها، وبدخول الدراسات الانثروبولوجية المدينة بدأت شيئاً فشيئاً تستخدم المنهجية الجزئية للوصول إلى الكلية عن طريق تحديد ميدان الدراسة بموضوعة ثقافية مستندة إلى البعد المفاهيمي.

رابعاً: التداخل والتقاطع: يتشكل البحث الانثروبولوجي في العراق على أساس عنوان البحث الذي يحدد المدرسة التي يتبناها الباحث، فالأنثروبولوجية الاجتماعية تعني المدرسة البريطانية أي النظرية البنائية

(٣٢) عبد القادر عرابي، المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٧، ص ٧٨.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٣٤) عبد القادر عرابي، المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية، مصدر سابق، ص ٨٤.

الوظيفية، والانثروبولوجيا الثقافية تعني المدرسة الثقافية واتجاهاتها النظرية المؤشر في النموذج الثقافي، بقي أن نشير إلى المدرسة الفرنسية التي لم يتبلور استعمال مفاهيمي يحدد المنهجية في العنوان، والسبب في ذلك باعتقادنا أن المنهج البنوي يتجذر في اتجاهين، يمثل الاتجاه الأول ليفي ستراوس بمنظار تشترك فيه التصورات البنوية بين المدرسة الفرنسية والأمريكية، أما الاتجاه الثاني فيمثل ما رسل موس بمنظار معرفي يتوزع بين المدرسة الاجتماعية البريطانية والمدرسة الفرنسية. وتأسيساً على ما سبق ذكره من توجهات المدرسة الفرنسية بصورة مختصرة فإننا نجد بعض الدراسات الانثروبولوجية استخدمت التوجهات النظرية والمنهجية السابقة بصورة مفردة أي وفق المدرسة الفرنسية أما الأعم والأغلب في الدراسات الثقافية وحتى دراسات التغير الاجتماعي استخدمت توجهات هذه المدرسة بصورة مشتركة مع توجهات المدارس الأخرى، بل أن بعض الدراسات لا يفرق بين البنائية الاجتماعية والبنوية الإدراكية، مما أفقد المسار البحثي أهميته من خلال الخلط والتضارب المفاهيمي والمنهجي.

نتائج البحث:

1. ان منهجية الانثروبولوجيا العراقية في بداية التأسيس (شاكر مصطفى سليم) كانت ذات طبيعة استقرائية وحوارية بالمعنى النظري والمنهجي، ومن ثم تحولت الى استقرائية تميل الى التكميم.
2. يشكل البعد المكاني في الدراسات الانثروبولوجية العراقية أهمية تنعكس على منهجية الدراسة، إذ نلاحظ أن مدينة بغداد حصلت على أكثر من سبعين بالمئة من نصيب الدراسات الانثروبولوجية، وهذا مؤشر خطير يتضح في جوانب عدة منها ما يخص المنهجية وتطبيقاتها في المدينة بأسلوب تقليدي، وأما الجانب الآخر فهو القصور في دراسة المجتمع العراقي ككل وفهم ثقافته الريفية والحضرية والهامشية، بل أن دراسة الأثنيات والأبعاد الاقتصادية تحتاج إلى توسع كبير يسهم في حل العديد من الإشكاليات الموجودة حالياً.
3. إن المنظور الكلاسيكي للبنائية الوظيفية أخذ حيزاً واسعاً في دراسات القرية والتغير الاجتماعي وحتى نموذج الدراسات الثقافية، والإشكالية تكمن في تركيز هذا الاتجاه على فهم كيف يتوازن المجتمع (النظرة السلوكية)، في مقابل ذلك نحتاج في مجتمعنا العراقي إلى فهم لماذا هذا التوازن التقليدي وعدمية التغير المبرمج لخلق مجتمع متجدد.
4. إن استعمال الفرضية في الدراسات الانثروبولوجية لا يؤشر إشكالية منهجية إلا عندما يتحول الافتراض النظري إلى حكم مسبق يؤطر مسيره البحث، بمعنى انه يتوجب على الانثروبولوجي استعمال الفروض كآلية منهجية لتفسير المعطيات الميدانية، وليس كآلية لرسم أو تصوير المعطيات، وقد تتحول الكثير من الافتراضات التي تحتويها مفاهيم الدراسة إلى تعاريف إجرائية كما هو موجود في بعض الدراسات المؤشرة في نموذج القرية، إذ يتخذ بعض الانثروبولوجيين افتراضاً مسبقاً، وعليه يتوجب معالجة هذه الإشكالية في منهجية الدراسات الأنثروبولوجية.
5. على اساس الترسيمات الموجودة في المباحث الثلاثة، فان مسيرة البحث

الانثروبولوجي العراقي تبلورت على وفق ثنائيات تجسد مواضع بحثها، ومنها:
(المكان: دراسة انثروبولوجية)، (مفهوم/ عملية: دراسة انثروبولوجية)، (مفهوم/
مفهوم: دراسة انثروبولوجية)، وهذا يؤشر تأثير صغر المكان واتساعه على منهجية
البحث.

٦. التداخل المنهجي في الإطار النظري وعدم الفصل بين النظرية والمنهج، إذ يأتي التناول في
السياق النظري على أساس الموضوع المقترح للدراسة بافتراض مسبق.

٧. العرض التقليدي لأدوات البحث الأنثروبولوجي وعدم تزويدها بمفاهيم حديثة تمكّن الباحث
بالخروج بنتائج مهمة.

٨. التوسع في الجانب النظري على حساب المهمة الأساسية للبحث المتمثلة بدراسة مكان محدد أو
موضوع محدد داخل سياق اجتماعي، ففي أغلب الدراسات وجدنا سبعين بالمئة من هيكل الدراسة
يركز على فلسفة العلم ويتجاوز فلسفة الميدان.

٩. عدم تحرر الدراسات الأنثروبولوجية من الوصاية السوسيولوجية، إذ نلاحظ أن تراث المدرسة
الأنثروبولوجية الاجتماعية نُقل إلى المدرسة العراقية ومن هذا التراث توجهات براون في (علم
الاجتماع المقارن).

١٠. في الغالب يأتي اختيار موضوع البحث على أساس مهنة الباحث، أو مكان سكنة، أو نمطه
الثقافي، مما أدى إلى اختزال الخيال التحليلي بشخصية الباحث، فضلاً عن ارتباط زمن المعيشة
الفعلية بالمجتمع نفسه، أي ان الباحث من مجتمع الدراسة نفسه، أي عدم توفر شرط التغريب
المنهجي، وهو شرط اساس لفهم المعطيات وانتاجها.

١١. تعاني معظم دراسات القرية والتغير الاجتماعي من إشكالية بناء تساؤلات إجرائية مستخلصة من
المدرسة البنائية الوظيفية.

١٢. تزايد الاهتمام بالدراسات ذات الطابع الكمي على حساب التوجهات النوعية.

١٣. تزايد الاهتمام بالدراسات الثقافية في المدينة مما أعطى زخماً نظرياً للتوجهات الأنثروبولوجية
العراقية، إلا إن الإشكالية تكمن في عدم السيطرة على الميدان وبمنظور تقليدي.

١٤. التداخل في المفهوم الأثنوجرافي، فعندما نتكلم عن منهج أثنوجرافي نقصد مجمل المناهج
التجريبية أو طرائق البحث ولا نكتفي بذكر منهج وصفي، وبهذا الخصوص يصبح التحدث عن
منهج أثنوجرافي بالمفرد مخادعاً بعض الشيء، إذ نجد أن أغلب الدراسات الأنثروبولوجية العراقية
تطلق على الأثنوجرافيا منهجاً وهي آلية للبحث.

١٥. إن اشتقاق الأسئلة التي يعتمد عليها الباحث من النظرية، وبتصورات مسبقة بين البناء
الاجتماعي والوظائفية التي تشكل ديمومته واستقراره تعدّ من أهم السمات التي ادت الى نمطية
التوجهات الانثروبولوجية العراقية.

١٦. غياب ثنائية الموقع والواقعة التفاعلية في الاعمال الانتوجرافية لنموذج القرية والتغير والاكتفاء بالمكان الشمولي، وهذا يؤكد ان معظم الدراسات الانثروبولوجية العراقية ذات طبيعة مونوغرافية ابتعدت عن الغرض من التوصيف.

١٧. امتداد تأثير المفاهيم الحارسة في الدراسات الانثروبولوجية العراقية من الريف الى المدينة مع بعض التغير، مثال ذلك (شبكة العلاقات الاجتماعية في المدينة)، و(تغير السلطة الابوية في منطقة الكرادة).

مصادر البحث

- إدريس سالم الحسن، من قضايا الانثروبولوجيا المعاصرة، بارث والوظيفية و المجلة العربية للعلوم الانسانية، جامعة الكويت، العدد ٢٧٤٠.
- آدم كوبر، الثقافة التفسير الانثروبولوجي، ترجمة: تراحي فتحي، عالم المعرفة، الكويت، ط١، ٢٠٠٨.
- السيد حافظ الأسود، الأنثروبولوجيا الرمزية، منشأة المعارف، الاسكندرية، ٢٠٠٢.
- أيكه هولتكرايس، قاموس مصطلحات الأثنولوجيا والفولكلور، ترجمة: محمد الجوهري، حسن الشامب، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٢.
- برومليه بودلين، الأثنوس والتاريخ، ترجمة: طارق معطراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨.
- بيار بونت، ميشال إيزارن معجم الأثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة: مصباح حمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦.
- حسن مبارك طالب، تأصيل المنهج في العلوم الاجتماعية، المجلة العربية للدراسات الأمنية، المجلد ١٦، العدد ٣٢، ٢٠٠١.
- حسين فاضل سلمان، تحضر الضواحي، دراسة انثروبولوجيا الحضرية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، قسم الاجتماع، ٢٠٠٣.
- حسين فهم، قصة الانثروبولوجية، فصول في تاريخ علم الإنسان، الكويت، عالم المعرفة، مطابع الرسالة، ١٩٨٦.
- شاكر مصطفى سليم، الجبايش، دراسة انثروبولوجية لقرية في أهوار العراق، بغداد، مطبعة الرابطة، ٩٥٦، الجزء الأول.
- طوني بينيت، لورنس غرو، ميغام موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى.
- عبد الغني عماد، منهجية البحث في علم الاجتماع الإشكاليات، التقنيات، المقاربات، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.
- عبد القادر عربي، المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٧.
- عبد الوهاب خزعل عبد الباقي، التعددية الأثنية دراسة أنثروبولوجية في مدينة بغداد، أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠١١.

- كليفورد جيرتز، تأويل الثقافات، ترجمة: د. محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٩.
- محمد سليمان الحداد، محمود يوسف النجار، الانثروبولوجيا مقدمة في علم الإنسان، المطبعة الدولية، الكويت، ١٩٨٨.
- مشير باسيل عون، الغارة الفلسفية، بحث في تاريخ علم التفسير الفلسفي الغربي، دار المشرق، بيروت، طبعة أولى، ٢٠٠٤.
- مصطفى عمر، إشكالية المنهج في الانثروبولوجية، دار العلم للتوزيع، القاهرة، د.ت.
- ياس خضر عباس العباس، الدليل والإشارة في ثقافة الإنسان العراقي، دراسة أنثروبولوجية ثقافية بمدينة بغداد، أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠١١، ص ٩٥.
- شاكر مصطفى سليم، الجبايش، دراسة أنثروبولوجية لقرية في أهوار العراق، ج ١، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٦.
- علاء الدين جاسم، علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق، دار التربية، بغداد، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٥.
- فاروق اسماعيل المدخل إلى الانثروبولوجية النظرية والمنهج، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧.
- فتحية محمد إبراهيم، مصطفى حمدي الشنواني، الثقافة والبيئة مدخل إلى دراسة الأيكولوجيا الثقافية، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٩٨٨.
- فتحية محمد إبراهيم، مصطفى حمدي الشنواني، مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، دار المريخ، الرياض، ط ١، ١٩٨٨.
- مهنا يوسف حداد، الأنثروبولوجيا الدينية أو العلاقة البنائية بين ظاهرتي الحضارة والديانة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، عمان، ط ١، ٢٠١١.
- جيامبيترو جوبو، اجراءات البحث الاثنوجرافي، ترجمة: محمد رشدي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٦.